المفاهيم الدينية للفِتْيان المتأخرين
دراسة في فتوَّة الخليفة الناصر وتطورها
في النقابات الحِرْفية المتأخرة

د٠ عبد الرزاق محمد عبد الرحمن (*)

تمهيد:

القصد الأول من هذه الدراسة هو التقدُّم خطوةً جديدةً على طريق العناية بنصوص الفتوَّة العربية المتأخِّرة، وهي عناية يشبه أن تكون انقطعت منذ منتصف القرن الماضي، بعد صدور ذلك الكتاب الرائد المنسوب إلى ابن المِعْمار البغداديِّ الحنبليِّ (ت: ٦٤٢هـ)(١)، وما أنجز من الدراسات التاريخية والحضارية منذ ذلك الحين إنما يشير إلى الفتوة من حيث هي صورة أولية من الفروسية أو الكشف أو نقابات العُمَّال، تأثرت بالطرق الصوفية في بعض رسومها وشعائرها؛ ولهذا استندت هذه الدراساتُ، في غالب أمرها، على وثائق السِّجِلَّات الشرعية والإدارية في الوقوف على الأحوال التفصيلية لطوائف الصُّنَّاع والحِرْفيِّين، في نواحٍ متباينة من الممالك الإسلامية.

(*) مدرِّس بقسم الفلسفة الإسلامية كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

(١) نشر هذا الكتاب أول مرة في بغداد سنة ١٩٥٨، بتحقيق أربعة من كبار الأساتذة العرب: مصطفى جواد، وتقي الدين الهلالي وعبد الحليم النجار وأحمد ناجي القيسي، وصدَّره مصطفى جواد بمقدمة ضافية عن تاريخ الفتوة العربية اعتمد فيها على ما كان نشره من قبل في مجلة "لغة العرب" العراقية، ثم أخرجه فؤاد حسنين في القاهرة بعد ذلك ببضعة أشهر (يوليه من سنة ١٩٥٩)، وقد نَسَب الكتاب، على قراءة المستشرقين الألمانيين كاله Kahle وتشنر Taeschner من قبله، إلى "ابن العمَّار البغدادي" لا "ابن المعمار" التي اقترحها مصطفى جواد.

بقي، إذًا، جانب التصوُّرات الدينية للفِتْيان المتأخِّرين غير واضح، وكذلك بقيت رسومهم في محافلهم وشعائر الانتساب إليهم غير مكتملة؛ إذ توشك "فتوَّة ابن المعمار" أن تكون المصدر الوحيد في شرح هذه الرسوم، مع إشارات غير وافية في مشاهدات بعض الرحَّالة المتأخِّرين من العرب والفرس والترك.

فالمأمولُ من العناية بما لم ينشر من نصوص الفتوة المتأخرة أن يسدَّ شيئًا من هذا النقص في كلا جانبيه، وأن يعيد "الفتوَّة" بذلك إلى دائرة اهتمام المشتغلين بالفلسفة الإسلامية.

المبحث الأول

الخليفة الناصر العباسي ونشأة الفتوة المتأخرة

١– فوضى العيارين في بغداد قبل عهد الناصر:

كثر العيَّارون والزعران في بغداد، وظلَّ أمرهم في ازدياد منذ القرن الثالث، حتى ليؤخذ من روايات المؤرخين أنهم صاروا أشبه شيء بالتنظيم العسكري: لهم هيئة مخصوصة في لباسهم ومشيتهم، ولهم اصطلاحهم الذي يتعاهدونه فيما بينهم، ولهم رؤساء يرجعون إليهم ويضبطون لهم أمورهم، فلما استقرَّت شئونهم على هذا النحو شرعوا في السلب والنهب، وكبس الدُّور، وترويع العامة:

– في ربيع الأول من سنة ٢٥١ ثارت الفتنة بين المستعين والمعتز؛ فأمر محمد بن عبد الله بن طاهر، صاحب الشرطة، أن يتخذ لعيَّاري بغداد "كافِرْكُوبَات"[(١)]، وأن يجعل فيها مسامير؛ لأنهم كانوا يحضرون القتال بغير سلاح، وكانوا يرمون بالآجرِّ، فأمر مناديًا أن ينادي: "من أراد السلاح فليحضر دار المظفَّر!"؛ فوافاها العيَّارون من كل جانب، وأثبت أسماءهم، ورأَّسُوا عليهم رجلًا يقال له: "ينتويه"، كبير عياري الجانب الغربي، فأخذوا السلاح وتفرَّقوا على أبواب بغداد فقتلوا من الأتراك نحو خمسين نفسًا[(٢)].

---

(١) اسم أطلقه المشارقة من أهل خراسان على الرِّماح، ممزوج من "كافر" العربية و"كوب" الفارسية، أي: "مضارب الكفَّار"، انظر– عبد الوهاب عزام: "الأدب الفارسي والأدب العربي"، في: مجلة الرسالة، العدد ٣، بتاريخ: ١٥ فبراير ١٩٣٣، ص٢٢، ويحتمل أنه كان في أول الأمر سلاحًا للخَشَبِية من موالي الكوفة، فاشتقوا له اسمًا من "چوب" الفارسية، أي: الخشب، انظر: مقالة "الخشبية" من موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحرير فان أرندنك، ط. مركز الشارقة، جـ١٥ ص٤٦٧١

(٢) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط. الثانية، ١٩٧٦م، جـ٩ ص٣٠٩

– وفي المحرم من سنة ٣٦٤ استفحل أمر العيارين في بغداد، حتى أشعلوا فيها الحرائق، وركبوا الخيل وتلقبوا بالقوَّاد(١).

– وفي ذي القَعْدة من سنة ٣٩٢ كبس العيَّارون دار رجل ينظر في المواريث والمعاملات يقال له: أبو عبد الله المالكي، فلم يجدوه ووجدوا صهره على ابنته فقتلوه، وقتلوا في ذلك اليوم رجلًا آخر من وجوه الناس(٢).

– وفي سنة ٤١٦ انتشر العيارون في بغداد، وجاهروا بأخذ الناس نهارًا، قال الذهبي: "وكانوا يمشون بالليل بالشمع والمشاعل، ويكبسون البيت ويأخذون صاحبَه يعذِّبونه إلى أن يقرَّ لهم بذخائره، وأحرقوا دار الشريف المرتضى"(٣).

– ثم دخلت سنة ٤٢٦ وفيها هجم العيارون على بغداد كلها، حاضرة الخلافة العباسية، فاستولوا عليها، وصارت لهم الكلمة النافذة فيها، قال سبط ابن الجوزي: "فيها استولى العيَّارون على بغداد، وملكوا الجانبين، ولم يبق للخليفة ولا لجلال الدولة حكم"(٤)، وقام لهم رجلٌ يقالُ أبو الغنائم بن عليٍّ، ونشب القتالُ بينهم وبينه؛ فكتبوا رِقَاعًا يقُولُون فيها: "إِنْ صُرِفَ أبو الغنائم عنَّا حَفِظْنا البلد، وإن لم يُصْرَفْ فما نترك الفسادَ!"(٥).

---

(١) انظر– تاريخ الإسلام، تحقيق تدمري، جـ٢٦ ص٢٥٧.

(٢) انظر– مسكويه: تجارب الأمم، تحقيق أبي القاسم إمامي، طهران، ط. الثانية، ٢٠٠٠م، جـ٧ ص٥١٥.

(٣) تاريخ الإسلام، جـ٢٨ ص٢٥٥–٢٥٧؛ العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت، ط. ثانية مصورة، ١٩٨٤م، جـ٣ ص١٢٣.

(٤) مرآة الزمان، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط. الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، جـ١٨ ص٤٩٧.

(٥) انظر– ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا وأخيه، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، جـ١٥ ص٢٤٥.

– أما سنة ٥٣٢ فوقع فيها حدثٌ له أهمية خاصة في تاريخ الفتوة المتأخرة، فقد ظهر في بغداد رجلٌ عيَّار يقال له: "ابن بكران"، كثر أتباعه حتى صار "يركب ظاهرًا في جمعٍ من المُفْسِدين"، وكان له "رفيق" يقال له: "ابن البزَّاز"، بلغ أمرهما معًا حد التفكير في ضرب السكة باسمهما!، ومما يستغرب أن والي بغداد حينئذ الشريف أبا الكرم أمر ابن أخيه أبا القاسم "أن يشتدَّ عليه ليأمن شره!"[١] كما يروي ابن الأثير، يعني بقوله "يشتد": أن يلبس "الشدَّ" على يديه ويصير من جُمْلة فِتْيَانِه!، وسنرى أن بعض المستشرقين المُحْدَثين يرى في مسلك هذا الوالي صورةً من سلوك الخليفة الناصر نفسه بعد ذلك.

ولم تكن فوضى العيَّارين مقتصرةً على نهب الأموال، وكبس الدور على أهلها، والإسراف في القتل، بل زادوا إلى هذا كله الاستخفاف بالمحرَّمات الدينية الخالصة، فكانوا أحيانًا يكاشفون بالإفطار في نهار رمضان وشرب الخمور وارتكاب الفجور[٢]، ويحكي غرس النعمة الصابئ (ت: ٤٨٠ هـ) عن امرأة عاهرة أنها كانت تلبس الجبة المضرَّبة، وتتعمَّم بالقياد وتأخذ السيف والدَّرَقة، وتخرج ليلًا فتمشي مع العيَّارين، وتشرب إلى أن تسكر وتعود سَحَرًا إلى بيتها، وربما انتهى بها السُّكْر إلى الحدِّ الذي لا تملك معه أمر نفسها؛ فيحملها العيارون إلى دار زوجها على تلك الحال[٣].

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ، تحقيق تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط. الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، جـ٩ ص٩٦.

(٢) انظر– المنتظم، جـ١٥ ص٢٤٦.

(٣) انظر– ياقوت: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، جـ٤ ص١٨٥١، وانظر أيضًا– إحسان عباس: شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الثالثة، ١٩٨٨م، جـ٢ ص٣٣٩.

ولهذا لم يكونوا يتحرَّجون من التعرُّض لوجوه الناس وأهل العلم والدين، وقد قتلوا في سنة ٤٠٥ هـ الفقيه الشافعي القاضي أبا القاسم الكَجِّي، وكان يضرب به المثل في حفظ المذهب، وانتهت إليه الرياسة فيه، وقد قتله العيَّارون في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان(١).

إنَّ سرد هذه الوقائع من "تاريخ العيَّارين" هو شيء لا بدَّ منه لفهم تطور الفتوة المتأخرة، وفهم مسلك الخليفة الناصر في "احتواء" هؤلاء الخارجين عن الآداب العامة باصطناع "طريقة أخلاقية" لتهذيبهم وضبطهم؛ فلم تكن إلا تلك الفتوة الشرعية، فبذل الناصر جهده لإحيائها، وتجديد رسومها وشعائرها، وقد قدِّر له التوفيق زمنًا غير قصير.

٢- إصلاح الفتوَّة عند الخليفة الناصر:

تكاد الفتوة المتأخِّرة أن تكون صنعة يد الخليفة الناصر لدين الله العباسي (٥٥٣-٦٢٢ هـ)؛ هو أَحْيَا رُسُومَها، وجدَّد ما اندثر من معالمها، وبعثها بعثًا جديدًا، وكاتَبَ المتغلِّبين على النواحي فلبسوا منه سراويلاتها، وشربوا ماءَها ومِلْحَها، واتصلت لهم أسانيدها بالنبي ﷺ، ورُتِّبت لهم أحكامٌ عملية تفصيليَّة على طريقة الفقهاء؛ فألقى ذلك كلُّه على الفِتْيان ثقلًا أخلاقيًّا، حالَ بينهم وبين التدهور إلى مسالك الزعران وأرباب الفساد دهرًا طويلًا.

(١) انظر- ابن العماد: شذرات الذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دمشق- بيروت، دار ابن كثير، ط. الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، جـ٥ ص٣٥

وينبغي هنا التنبُّه إلى أن الناصر بويع بالخلافة سنة ٥٧٥ هـ، وله من العمر اثنتان وعشرون سنة، ولبس سراويل الفتيان سنة ٥٧٨ هـ؛ فيكون الخليفة قد أظهر نظام الفتوة ورفع منارها وهو بعد شابٌّ في الخامسة والعشرين من عمره، قال الموفق عبد اللطيف: "كان الناصر لدين الله شابًّا مرحًا، عنده ميعة الشباب"[(١)]، وكان مع ذلك مشتغلًا بالعلم ورواية الحديث، فأجازته طائفة من أشياخ زمانه، وأجاز هو طائفة من الكبار وكانوا يفاخرون بذلك[(٢)]، وقد وصل إلينا كتابٌ في الحديث من تصنيفه سمَّاه: "روح العارفين، من كلام سيد المرسلين"، أظهره سنة ٦٠٧ هـ، وهو شيء عزيز النظير في الخلفاء.

«روح العارفين»
مخطوط تشستربيتي، رقم: ٤٧٣٣

وطالت مدَّة الناصر حتى اتصلت خلافته قريبًا من نصف قرنٍ؛ فكان بهذا أطول العباسيِّين ملكًا، حاول فيها أن يستعيد هيبة الخلافة العباسية، وأن يستردَّ لها سطوتها على الولايات والأطراف، فخضع له ملوكها، وأذعنوا لسلطانه، وبثَّ أصحاب الأخبار في الجهات فاشتهر عنه دقة إحاطته بأمور مملكته، وذاعت عنه حكايات في ذلك عجيبة، حتى ظنَّ بعضُ الناس أنه يعلم الغيبَ.

---

(١) تاريخ الإسلام، جـ٤٥ ص٨٤، وقد شاهده ابن جبير الأندلسي زمن مقامه في بغداد، وذكر في نعته أنه كان "في فتاء من سنِّه" وذلك في سادس صفر من سنة ٥٨٠هـ ، انظر: رحلة ابن جبير، نشرة محمد زينهم، دار المعارف بالقاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٨٧.

(٢) سير أعلام النبلاء، تحقيق جماعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط. الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، جـ٢٢ ص١٩٣.

اجتمع للناصر، إذًا، فتاء السنِّ، وحظٌّ من العِلْم، وقُدْرةٌ في السياسة وتدبير الملك، فكان إصلاحه نظام الفتوة وجهًا من وجوه ذلك الإصلاح العام لأحوال الخلافة العباسية في القرن السادس، وكان زمانه كأنه الصحوة التي تسبق الموت؛ إذ سرعان ما سقطت بغداد في يد المغول بعد وفاة الناصر بنحو أربع وثلاثين سنة.

على قُرْبِ عهدٍ بمبايعة الناصر بالخلافة اتَّصَلَ بشيخ الفِتْيان في زمانه، الشيخ عبد الجبار بن يوسُف بن صالح البغدادي (ت: ٥٨٣ هـ)، بستانيٌّ من أهل باب الأَزَج، كان في بدء أمره شجاعًا مشهورًا، "تهابه الفتيان، وتخافه الرِّجالُ، ثمَّ ترك ذلك ولزم العبادة"(١)، وآثر العزلة فبنى لنفسه صومعةً بباب "كلواذي" ينقطع فيها لعبادة الله، وقد علا شأنه بعد تفتِّي الناصر إليه، ولبسه سراويل الفتوَّة على يديه، وخرج الشيخُ حاجًّا سنة ٥٨٣ هـ فأدركته الوفاة بالمعلَّى، ودُفِن هناك، والكُتُب التي تعنى بذِكْر إسناد الفتوَّة لا تختلفُ في أنها اتَّصَلَتْ بالخليفة الناصر من طريق عبد الجبَّار البغدادي(٢).

وقد كانت الفتوة حينئذ نظامًا قائمًا، ولها نقيبٌ يقوم على شؤونها يقال له: "أبو المكارم أحمد بن محمود بن داذي النيلي"، وقد خلع الناصر عليه بعد تفتِّيه.

على أن اختيار هذا الشيخ البغدادي على الخصوص مما يستحق السؤال عنه؛ إذ ليس هو شيخًا لطريقة صوفية ظاهرة، ولا لمذهب من فنون العلم، مع كونه عند

(١) تاريخ الإسلام، جـ٤٠ ص٤٧.

(٢) انظر- فتوة ابن المعمار، تحقيق مصطفى جواد وزملائه، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٥٨م، ص١٤٨؛ النقاش الخرتبرتي: تحفة الوصايا، مخطوط أيا صوفيا رقم: ٢٠٤٩، لوحة ١١٨/و؛ السخاوي: تحبة الأحباب، تحقيق محمود ربيع وحسن قاسم، القاهرة، مطبعة العلوم والآداب، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، ص١٧.

اتصال الناصر به في عزلة عن الناس منقطعًا عنهم؛ ولذلك لا نكاد نجد له ذكرًا في شيء من دواوين التاريخ أو التراجم إلا بمناسبة علاقته بالناصر، والذي يظهر أن عبد الجبار هذا ما كان إلا زعيمًا شعبيًّا، "تهابه الفتيان وتخافه الرجال"، وبهذا الاعتبار يصلح أن يكون وسيلة إلى احتواء الفتيان وإخضاعهم، ثم هو غلبت عليه الديانة، ومن هذا الوجه لا يجد الناصر حرجًا في الانتساب إليه، والتفتِّي على يديه.

استقرَّ الناصر في جملة الفتيان نحوًا من ستة وعشرين عامًا، ثم بدا له أن يستقل بأمرهم كله؛ فأهدر كل فتوة كانت قبله، وأسقط اعتبار كل طائفة من الفتيان لا يمتد نسبها إليه، ولا تتصل إليه بسبب، قال ابن السَّاعي في حوادث سنة ٦٠٤: "في هذه السنة أُهْدِرَت الفتوَّة القديمة، وجُعِل أمير المؤمنين الناصر لدين الله القِبْلة في ذلك والمرجُوع إليه فيه"(١)، ثم شرع في ترويجها بين الناس، فدخل فيها الخاصة والعامة، حتى "تفتَّى الأصاغر والأكابر" من أهل بغداد، أولئك الذين طال ما ذاقوا الويلات من "عَمَلاتِ" العيَّارين وفسادهم.

ثم زاد الناصر فكاتب ملوك الأطراف وأمراء النواحي، واستحدث قضية "الوكالة" في إلباس سراويلات الفتوة، فبعث رُسُلًا من بغداد إلى سائر أعمال مملكته يُلْبِسُون ثيابَ الفتوة باسم الخليفة الناصر، ويُشْرِبُون ماءَها، ويَعْقِدُون محافلها وسائر رسُومها وشعائرها، وهو مسلك أثار الحيرة في حقيقة مقاصده من إحياء نظام الفتوَّة، وإذاعته في الناس على هذا الوجه: خاصَّتهم وعامَّتهم، ومُلُوكِهم وسُوقَتِهم.

(١) الجامع المختصر، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، ص٢٢١.

قبل الشروع في تصور هذه المقاصد لابد من التنبيه على خصيصتين تميَّزت بهما فتوَّة الناصر:

إحداهما- الطابع البلاطي أو الملكي، فقد زاد الناصر على سراويلات الفِتْيان أمورًا أخرى جعلها من أمارات الفتوة أو مما يندرج في رسومها، وهي الرَّمْيُ بالبُنْدُقِ والعناية بالطيور الهوادي أو المناسيب، وهي التي تهتدي إلى أوكارها، وكما أبطل ثياب الفتوة إلا ما اتصل إليه كذلك "منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره، ومنع من الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه؛ فأجابه الناسُ بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنسانًا واحدًا"(١)، فارَقَ العِرَاق والتحق بالشام حتى لا يُجِيبه، وكانَ يُفَاخِر بأنه شذَّ وَحْدَه عمَّا أراده السلطانُ من ذلك.

وفي بعض المرويات التاريخية إسراف في تصوير تعلق الناصر بهذه الطيور، حتى قيل إن الوزير دخل عليه وهو يقول: "آه يا مولانا! إن التتار قد ملكت البلاد وقتلت المسلمين!"، فأجابه الناصر: "دعني أنا في شيء أهم من ذلك؛ طيرتي البلقاء لي ثلاثة أيام ما رأيتها!"(٢)، وهي حكاية يظهر فيها غرض التشنيع عليه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١٠ ص٤٠٠، ونحوه عند النويري: نهاية الأرب، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط. الأولى، ١٤٢٣هـ، جـ٢٣ ص٣١٨

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، القاهرة، دار الكتب المصرية، جـ٦ ص٢٦٢، وعلَّق بقوله: "وفي هذه الحكاية كفاية إن صحَّت عنه"

والأخرى– أن الفتوة خرجت عن العمومات الأدبية أو الأخلاقية، فحُرِّرت لها أحكام فقهية، وفصلت جائزاتها ومحظوراتها، وصار لها شيوخ قد يتنازعون في بعض أحكامها كما يتنازع الفقهاء، وكان الناصر منذ أن لبس سراويلاتها أوعز إلى أبي علي بن الدوامي، وكان "حَسَن الصَّوتِ مَلِيحَ الإيرَاد" فجعله نقيبًا للجماعة، وطلب إليه أن يخطب في شروط الفتوة وأحوالها المَرْضيَّة[١]، ثم كان يشارك في ضبط هذه الأحكام بمراسيم يصدرها بمناسبة بعض الوقائع[٢]، وفتوة ابن المعمار إنما هي تصنيفٌ في "فقه الفتوة" و"شريعة الفتيان"، وكذلك ظهرت التصانيف في أحكام الرمي بالبندق، وأهمها "المقترح في المصطلح" في صيد الطير لابن وَدْعة البقَّال الشافعي (ت: ٥٨٨ هـ)، ويذكر أيضًا أن هذا إنما "نقله عن السلطان الملك الناصر".

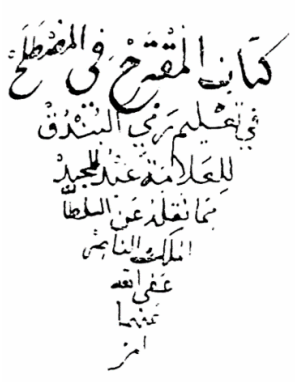

«المقترح في المصطلح» في تعليم رمي البندق، للعلامة عبد المجيد مما نقله عن السلطان الملك الناصر
مخطوط باريس، رقم: ٤٦٣٩

وعلى كل حال، ينبغي أن نستحضر، في فهم مسلك الناصر هذا، ما سلف قريبًا من أحوال الشطار والعيارين في بغداد وما حولها، وأنهم بلغوا حد الاستيلاء على بغداد كلها، بجانبيها الشرقي والغربي، حتى ما عاد للخليفة العباسي كلمة ولا حكم، وتكررت وقائعهم في كبس الدور وإحراقها، ونهب ما فيها، والتعرض لحريمها، وقتل جماعة من وجوه الناس وعلمائهم، والمجاهرة بالمعاصي وصنوف

(١) الملك المنصور: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب، ص٨٦.

(٢) انظر مرسوم الناصر بمناسبة تقاتل بعض أحزاب الفتوة، في: تاريخ ابن الساعي، ص٢٢٢-٢٢٦.

المخالفات القبيحة؛ فلا شك أن إصلاح الفتوة مسلك كان وثيق الصلة باستقرار الخلافة في بغداد، من نواحي: السياسة، والأمن، والمجتمع، والآداب العامة، وإقامة الدين وحفظ حرمة الشريعة.

يضاف إلى هذا أن الناصر لم يدعم شيوخ الفتوة بسلطة الخلافة فحسب، وإنما نصب نفسه إمامًا لها، ثم نشرها بإسناده في جموع الناس، فصار الولاة والمتغلبون، والخاصة والعامة، متصلين به "**اتصالًا شخصيًّا**"، وهو شيء يتعذر فهمه فهمًا صحيحًا عند من لم يطالع فقه الفتوة، وما يقيمه من حرمة هائلة لهذا العهد الوثيق، حتى كانوا إذا حلفوا حلفوا بعهد الفتوة فلا يحنثون البتة، وكان نفر من الفتيان يجرحون أيديهم فيشرب كلٌّ واحدٍ منهم دَمَ أخيه في الفتوَّة؛ تعظيمًا لما بينهما من الميثاق الغليظ(١).

فلا يخفى عندئذ ما ينضاف إلى الناصر من مقام أدبي وطيد مع شرعيته السياسية وحرمته القرشية.

وقد تقدم أن الفتيان قد تحولوا، قبل الناصر بزمانٍ، إلى ما يشبه التنظيم العسكري، فما ارتبطوا به من عهد يمتد منهم إلى النبي ﷺ، من طريق الناصر، جدير بأن يُحِيلَ شراب الفتوة إلى شيء بمنزلة "البيعة" أو "يمين الولاء"، وأن يُحِيلَ فِتْيَانَ بغدادَ إلى ما يُشْبِه الجيش الشخصيَّ للناصر، ولعل مما يشهد لهذا ما يرويه الملك المنصور أن الذين حسَّنوا للخليفة الشابِّ أن يكون "فتًى" قالوا له: "إنَّ هنا رجلًا حَسَنًا يقالُ له: عبد الجبَّار، **خَلْفَه خلقٌ كثيرٌ، وهؤلاء يُحْتَاجُ إليهم في وقتٍ**"(٢).

---

(١) انظر: فتوة ابن المعمار، ص١٥٠، وهو ينسب هذا الفعل إلى "الجهال"، ويحكم بأنه "غير جائز".

(٢) مضمار الحقائق، ص٨٦.

من أجل هذه الاعتبارات كلِّها لا يتابَع ابن الأثير في استخفافه بمسلك الناصر في الفتوة، وهو فرع عن أصل رأيه السيئ فيه وفي عموم خلافته، وكذلك لا يُتابَع ابن خلدون على رأيه في أن إظهار نظام الفتوة إنما كان دليلًا على هرم الدولة، وذهاب الملك عن أهلها(١)، يشير إلى أن العناية بالفتوة والحمام ورمي البندق إنما كانت وجهًا من اللغو والهذر، يؤذن بنهاية الدولة وقرب زوالها.

وقد تفرَّقت اجتهاداتُ المستشرقين المُحْدَثين في تفسير إقدام الناصر على تجديد روابط الفتوة(٢):

– فمنهم من ذهب إلى أن الخليفة إنما أراد حشد المجاهدين تحت لوائه ليواجه بهم عدوان الصليبيين على دار الإسلام، واختار أن ينصب نفسه على رأسهم لينشئ علاقة شخصية بينهم وبينه تكون بديلًا عن العلاقات المضطربة بأمراء الجيش لمكان ضعف الخلافة العباسية آنئذ. وأهم من يميل إلى هذا التفسير المستشرق الألماني "ڤيتك".

– ومنهم من فسَّر ذلك بسعي الناصر إلى استرداد الأهمية السياسية للخلافة، مستغلًّا ضعف السلاجقة حينئذ، ومن جانب آخر يرأب صدع العالم الإسلامي بالتقريب بين السنة والشيعة في نظام واحد. وأهم من يمثل هذا الرأي المستشرق الألماني "فرانتس تشنر".

ينتقد المستشرق الأمريكي جيرارد سالينجر كلا التفسيرين، ويرى أن كتابي ابن المعمار والخرتبرتي، وهما من الدائرة المحيطة بالناصر، لا يؤيدان شيئًا من ذلك، ويلاحظ أن كلا الكتابين لا يذكر فيهما الجهاد أصلًا، مع كون الناصر لا يعرف

---

(١) العبر، وديوان المبتدأ والخبر، نشرة خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ط. الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، جـ٣ ص٦٦٠.

(٢) Salinger, Gerard, "Was the Futuwa an Oriental Form of Chivalry?", Proceedings of the American Philosophical Society, vol. 94, No. 5 (Oct. 19, 1950), pp. 486-488

له جهد في قتال الصليبيين، بل كان رده على صلاح الدين عندما استنصره أقرب إلى الخذلان، يضاف إلى ذلك أن بعض جمعيات الفتوة أو "بيوتها" كانت منصرفة إلى الرد على الشيعة، وكثيرًا ما ثارت الشحناء بين الفريقين.

من أجل ذلك يختار سالينجر تفسيرًا ثالثًا، وهو احتواء العيَّارين الذين سطوا على بغداد مرارًا قبل عهد الناصر، ويولي عناية خاصة بواقعة ابن بكران العيار، التي سلف ذكرها، ويرى أنها "مفتاح" لفهم ما سيصنعه الناصر فيما بعد؛ فإن الوالي لم يجد سبيلًا إلى اجتناب شره إلا بالانتساب إليه من طريق ابن أخيه، فهذا من جنس ما فعله الناصر(١)، ولن يرضى تشنر بهذا التفسير، إذ يرى أن حاصله أن يكون الناصر أراد احتواء العيَّارين بأن يكون هو واحدًا منهم!(٢).

ويظهر أن الناصر قد انتفع بالفتوة من وجوه كثيرة، ولكنها في مجموعها أغراض نفعية، تتعلق بتدبير شؤون الخلافة، وتمكين سلطانها، وجمع كلمة الأمراء عليه، ثم قدِّر لها أن تتطور، في عصور لاحقة، إلى أنماط وتنظيمات لم يكن يحسب لها حسابًا، أو يخطر له أن فتوَّته ستؤول إليها يومًا ما.

٣- الفتوَّة في العصور المتأخرة:

مهما تكن مقاصد الناصر من استحداث نظام الفتوة أو إصلاحه، فقد بقي هذا النظام من بعده، فبعد خلافة قصيرة للظاهر بأمر الله آل الأمر إلى ابنه المستنصر، ويظهر أنه حاول أن يصنع مثل ما صنع جده الناصر، لا أن يستكمله، فاستحدث سراويل للفتوة يكون هو على رأس إسنادها، ويؤخذ من كلام ابن الوردي أن ثمة نزاعًا ثار بين أصحاب السراويلات الناصرية وأصحاب السراويلات المستنصرية، وكل جماعة تنكر على أختها(٣).

---

(١) Ibid, p. 489

(٢) انظر- تشنر: "الفتوة والخليفة الناصر"، ضمن بحوث: "المنتقى من دراسات المستشرقين"، ترجمة صلاح الدين المنجد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٥م، جـ١ ص٢٠٠.

(٣) انظر: الشهاب الثاقب، مخطوط أيا صوفيا رقم: ١٩٤٣، لوحة: ١٦.

وكذلك كان لبس هذه الثياب أمارة على الدخول في الطاعة، ويرسل بها الخلفاء إلى أمرائهم في جملة الخلع والتشاريف(١).

ويغلب على الظن أن عهد الملك الظاهر يمكن أن يعد ختام الفتوة الملوكية التي ابتدعها الناصر؛ فإن الفتوة بعده تظهر في صورة الجمعية الشعبية التي يملؤها أوساط الناس أو من دونهم، بل يشير مكتوبٌ للسلطان المنصور قلاوون أن في القاهرة قاعاتٍ تسمى: "قاعات الفتوة، يأوي إليها القطيعون من أبنائها ومن يظن من نفسه القوة"، وفيه أمر للوالي بالمبادرة إلى غلق هذه القاعات(٢)، وهذا في جملة أوامر منه متعلقة بحفظ الأمن والآداب، وقد أغلقت دُورُ الفِتْيان مع دُورِ "بَنَات الخَطَا" وغير ذلك من "المُنْكَرات".

وغاية ما يؤخذ من هذا أن الفتوة عادت إلى الثقافة الشعبية، وتخلَّت عن طابعها البلاطي الناصري؛ ولذلك ثارت الخُصُوماتُ بين الفِتْيان والفُقَهاء، وخرجت الفتاوى ببدعية الفتوة وحرمة الانتساب إليها، وقد كان المؤرخ والأديب عمر ابن الوردي (ت: ٧٤٩ هـ) قد لبس سراويل الفتيان معتقدًا صلاحهم كما قال، ثم فارقهم واشتغل بالرد عليهم وبيان فساد طريقتهم، جدالًا بلسانه ثم بقلمه في رسالة صنفها في هذا الشأن سماها: "الشِّهَاب الثَّاقِب".

على أن هذا الطور الشعبي إن دلَّ على شيء من نزول رتبة الفتوة عما كانت عليه، فإنه كان كذلك مُؤْذِنًا بزيادة شيوعها في طبقات الناس على تفاوتها، وقد زار ابنُ الورديِّ محلة بلبيس (شرق القاهرة) سنة ٧١٩ فوجد الفتوة فاشيةً في

(١) انظر– الدواداري: كنز الدرر، الجزء السابع، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م، ص٢٩٦؛ أخبار سلاجقة الروم، تعريب محمد السعيد جمال الدين، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط. الثانية، ٢٠٠٧م، ص٧١–٧٢؛ القطب اليونيني: ذيل مرآة الزمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط. الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، جـ٢ ص١٠٤.

(٢) انظر– شافع بن علي: الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق تدمري، بيروت، المكتبة العصرية، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص١٣٠.

أهلها، وحكى عن شيخ شيخه في الفتوة مباهاته بأنه ألبس في ليلة واحدة بضعة وثمانين سَرَاوِيل في دارٍ اتخذها الفتيان في الإسكندرية، وأنه جلب قناطير من الكنافة حتى داسها برجليه وهو يوزِّعها على الحاضرين، يغرف منها ويرمي عليهم وهم يتلقونها، حتى استدعاه والي الإسكندرية وسأله عن ذلك؛ فانتهره ثم طرده(١)، ولابد أن يكون هذا الوالي مدركًا لكون هذه الفتوة شيئًا آخر غير فتوة الخلفاء والملوك، على قرب العهد بها.

* * *

ومن عجبٍ أن هذا القرن الثامن الذي شهد بدء انحلال الفتوة العربية قد شهد أيضًا نشوء فتوة العجم، فقد كان سلاجقة الروم في الأناضول وآسية الصغرى قد استحدثوا نظامًا للفتوة سمَّوه: "الأَخِيَّة"(٢)، وهي فتوَّة فَتِيَّة حينئذ، اجتذبت إليها جماعة من الفقهاء والقضاة والوجهاء، وانتشرت في تلك النواحي حتى ذكر ابن بطوطة أنهم "بجميع البلاد التركمانية الرومية، في كل بلد ومدينة وقرية"، وأثبت شيئًا مما عاينه من أحوالهم وصفة مجالسهم(٣).

ويظهر من مشاهدات ابن بطوطة أن "فتوَّة العجم" هذه قد اتسمت بثلاث خصائص سيكون لها أعمق الأثر في الفتوة الاجتماعية العربية: قربها من التصوف وطرقه، وطابعها العسكري، وتعلقها بطوائف الحرف والصنائع، وقد انتقلت جملة هذه الخصائص إلى الفتوة العربية بأثرٍ من السيادة السياسية العثمانية، وانتقلت معها الألفاظ والتعبيرات الفارسية والتركية في نصوص الفتيان العرب المتأخرين، حتى ما كان منها له بديل عربي ظاهر.

---

(١) انظر: الشهاب الثاقب، مصدر سابق، لوحة: ١٧/ ظ.

(٢) "أخي" على صورة "أخ" العربية مضافة إلى المتكلِّم، وبالعثمانية: "أخيلر"، وفي "معجم تيمور" (جـ٤ ص٤١٧): "أصله من اللغة الكاشغرية: أقي، بالإمالة"، وكذلك من اللغات التركية القديمة وهي فيها بمعنى: "أيها الجواد أو البطل أو النبيل" في صيغة الخطاب، انظر-خاتشاتريان: أهل الفتوَّة والفتيان في المجتمع الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ص١١.

(٣) انظر- رحلة ابن بطوطة، نشرة أكاديمية المملكة المغربية بالرباط، ١٤١٧هـ، جـ٢ ص١٦٣.

المبحث الثاني

فتوَّة الصنائع والحِرَف

انقسم أرباب الحِرَف طوائف كثيرة على عدد صنائعهم، وكانوا يستقلون بمواضع خاصة بهم من المدن، وهو مسلك قديم في تنظيم العمران الإسلامي لعلَّه يرجع إلى القرن الهجري الثاني[١]، وربما استقلوا كذلك برايات أو أعلام يتميز بها بعضهم من بعض، وكانت تقع فيما بينهم وجوه من المفاخرة والمباهاة.

أما انتظام أرباب الحرف في طوائف فهو شيء يدعو إليه التطور الاجتماعي نفسه، ولا يبعد أن تؤثر فيه التقاليد الباقية عن المدنيات القديمة قبل الإسلام، لا سيَّما البيزنطية منها، وأما التماس تفسيرها في الحركات الشيعية الغالية كالإسماعيلية والقرامطة، كما يفترض ماسينيون، فلعل ما سيق له من الشواهد التاريخية أن يكون غير كافٍ في بحث النشأة والظهور[٢]، ولكنه أقوى وأمتن في

---

(١) يقول ابن عذاري (ت: نحو ٦٩٥هـ) عن أبي خالد يزيد بن حاتم، والي إفريقية لعهد أبي جعفر المنصور، سنة ١٥٥ هـ: "رتَّب أسوار القيروان، وجعل كل صناعة في مكانها" (البيان المغرب، نشرة كولان وبروفنسال، بيروت، ١٩٨٣م، جـ١ ص٧٨)، وعليه يعتمد بعض المستشرقين، مثل فون كريمر، في الرجوع بالنقابات الإسلامية إلى هذا التاريخ المتقدم، انظر– برنارد لويس: "النقابات الإسلامية"، مجلة الرسالة، العدد ٣٥٥، بتاريخ ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٠، ص٦٩٧.

(٢) انظر– ماسينيون: مقالة "صنف" في: دائرة المعارف الإسلامية، جـ١٤ ص٣٥٤، ومناقشة برنارد لويس في "النقابات الإسلامية"، مجلة الرسالة، العدد ٣٥٦، بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٠، ص٧٣٥–٧٣٦، ويثبت خلاصة ما يحتج به في الأصول الإسماعيلية لنقابات العمال: نحو كلام "إخوان الصفا" في رسائلهم عن الصنائع العملية، وما تمتعوا به من مزايا تحت الحكم الفاطمي، وقوة النفوذ الإسماعيلي في تنظيماتها المتأخرة، وينتهي إلى أن الإسماعيلية خلَّفت في تلك النقابات "أثرًا عميقًا" ولكن لا يوجد شاهد على أنها "أوجدتها"، وانظر أيضًا– عبد العزيز الدوري: "الأصناف والحرف الإسلامية"، في: مجلة الرسالة، العدد ٩٨٣، بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٥٢، ص٤٩٦.

بحث الأسس الفكرية والرسوم العملية التي اعتمدتها طوائف الحرف في طور استقرارها المتأخر، والموافقات هاهنا بين الفتوة الحرفية والطرق الصوفية وأعراف الغلاة في مجامعهم هي من الوضوح بحيث لا يخطئها النظر.

ومهما يكن من شيء، فقد كان على رأس كل أهل صنعةٍ شيخٌ مقدَّم فيهم، يتبعه المعلِّمون أو "الأُسْطَاوَات"، ثم تنزل المراتب حتى تصل إلى المتعلم أو "المُرِيد" طالب الصنعة، وكانت هذا الترتيب الحرفي تحيط به من كل الجهات ثقافة دينية تألف التراتيب الهرمية: فالتصوف يعرف الشيخ والمريد وطبقات رجال الغيب: من القطب والإمامين والأوتاد والأبدال، والإمامة الشيعية لها مراتب لاسيما الغلاة من الشيعة ممن اتخذوا من الشام مستقرًّا لهم.

تأثرت طوائفُ الحِرَف، وهي قلبُ الحياة الاجتماعية وجُمْهُور النَّاس، بهذا المسلك، ورأى أهلها أن نمط الفتوَّة هو أقربُ شيءٍ إليهم: كانت قوانينُه قد حُرِّرت منذ القرن السادس، مع آداب وفضائل، وإسناد شائع عندهم يصل بينهم وبين النبي ﷺ من طريقٍ لا يخلُو من خُلَفاء ومُلُوك، وكان كثير منهم من جملة الفتيان فرادى؛ فمن أجل ذلك استعاروا نظام الفتوة، وصارت الحرف عند المتأخرين بمنزلة "الأحزاب" و"البُيُوت" عند فتيان القرن السادس؛ فتحولت فروع الفتوة بذلك من التعلق بأشخاصٍ وأُسَرٍ إلى التعلق بحرفة وصنعة.

وهذا هو الترتيب العام لطوائف الحِرَف في صورته الأخيرة، بحسب ما عايَنَه الأستاذ إلياس قدسي في دمشق في النصف الأول من القرن التاسع عشر(١).

يلفت النظر أن هذا التطور التنظيمي قد تبعه مسلكٌ غريبٌ لا يُعْرَف متى ظهر في تاريخ الفتوة المتأخرة، وهو أنَّ أربابَ كلِّ صنعةٍ اتَّخَذوا لأنفسهم نبيًّا من الأنبياءِ أو صحابيًّا أو حكيمًا من أهل القرون الأولى، نسبُوا إليه صَنْعَتهم، وجعلوه شيخًا قديمًا لهم(٢):

آدم	الزِّرَاعة والحَرْث
شيث	الحِيَاكة
نوح	النِّجارة
إدريس	الخِيَاطة
داود	الحِدَادة
إبراهيم	المَوَاقِد وكلُّ ما يتعلق بالنار
إسماعيل	السِّلاح والفُولاذ

ثم توسَّعوا فأعادوا سَرْدَ سيرة "آدم" وقصَّة "العُرُوجِ" وحادثة "غَدِير خُمّ" على نمطٍ آخرَ يساعدُهم على ما قَصَدُوا إليه من التأصيل الرِّوَائيِّ لآدابهم وأعرافهم في مَحَافِلِهم ودَسَاكِرِهم، وهذه الوقائع الثلاث تكاد تكون قاعدة التصوُّر الديني للفتيان المتأخِّرين:

---

(١) انظر– قدسي: "نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية"، في: أعمال المؤتمر الدولي السادس للمستشرقين المنعقد في ليدن سنة ١٨٨٣م: Actes du sixième congrès International des Orientalistes: tenu en 1883 à Leide: Deuxieme Partie: Section 1: Sémitique, Leide, E. J. Brill, 1885, pp. 7–34.

(٢) انظر: فتوة الرضا، مخطوط بمكتبة برلين الحكومية، مجموعة وتسشتاين الثانية *Wetzstein II*، برقم: ١٦٤٠، لوحة ٨٧.

(أ) إن أول شدٍّ وقع في الأرض شدُّ آدم، فبعد أن تاب الله عليه أتاه جبريل في جمع من الملائكة يبشره بقبول توبته، ومعه حجر ومِقْراضٌ (= مِقَصٌّ)، فحلق رأسه وقصَّ أظفاره، ثم بسط له "سجادة الخلافة"، وألبسه خلعة الفتوة، وأعطاه مشطًا وأمره أن يحرص عليه لِمَا أُودِعَ فيه من الحِكْمة له ولذُرِّيَّته[١]، ثم جاء من الجنة بحَلِيبٍ وعَسَلٍ، فخَلَطَهما وصنع منهما "حَلَاوةً"، فأكل منها آدمُ وحوَّاء[٢].

(ب) وحين عُرِجَ بالنبيِّ ﷺ إلى السَّماوات، وبلغ إلى سدرة المنتهى، هنالك اجتمع إليه سبعة من الأنبياء: آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، جيء بهم ليشهدوا "تفتِّي" النبي عند السدرة، إذ ألبسه جبريل شدًّا من صوف أخضر مع تاج وعمامة وحلة، بحضرة الأنبياء السبعة؛ فهذه إذًا "دَسْكَرة" نقلها الخيالُ الشعبي إلى السماء: شيوخها، وثيابها، وسائر رسومها وشعائرها.

رجع النبي إلى مكة، فسأله صحابته أن يأخذوا عنه العهد والبيعة على نحو ما اتفق في السماء، فقال: "لا يكون ذلك إلا بإذنٍ من ربي"، وحج البيت ثم قفل راجعًا إلى المدينة، وفي الطريق نزل عليه جبريل فأمره أن يتخذ منبرًا من أرحال الجمال، وهنالك وقف وأخذ بيد عليٍّ وقال: "من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه"[٣]، ثم نزل فشدَّ وسط عليٍّ بيده، واتخذه أخًا عند المؤاخاة بين أصحابه، ثم قال: "يا علي، هذا

(١) يرجى ملاحظة ما في طيِّ النصوص من العناية بأصول الصنائع وأدواتها، لا سيَّما صنعة الحلاقين، ولها نوعُ خصوصيَّة في دوائر الفتوة المتأخرة.

(٢) انظر: كتاب الفتوة في معرفة الصنائع وحقائقها ومعرفة أبيار الصنائع، مخطوط بجامعة ييل *Yale* الأمريكية برقم: ٢٥٤- عربي، لوحة ١١.

(٣) هكذا تجمع نصوص الفتوة المتأخرة بين واقعتي "الإسراء" و"الغدير" في سياق واحد متصل، وهذا واحد من شواهد كثيرة على الخلط الهائل في التواريخ عند محرِّري هذه النصوص، وعلى الطابع الشعبي للحكايات الدينية المرويَّة فيها.

الشد والعهد والتخاوي، وبقيت اللقمة"، وهي "الحلاوة" التي صُنِعَتْ قديمًا لآدم، فعَمِلَها ﷺ وفرَّقها في صحابته(١).

وأذن لعليٍّ أن يشد ويعاهد من يشاء؛ فشدَّ سبعة عشر رجلًا من الصحابة، أوَّلهم سلمان الفارسي، ثم عاهد سلمانُ وأجاز رجالًا آخرين، وعاش نحوًا من ثلاثمائة وثلاثين سنة، وكان يُحْسِنُ إحدى وخمسين صنعةً، تلقَّى سبع عشرة منها عن عليٍّ، وتلقَّى سائرها عن المشايخ "الختياريَّة"، ومن طريقه اتصلت سلسلة إسناد مشايخ الحِرَف.

**

(١) انظر: كتاب الفتوة في معرفة الصنائع، مخطوط جامعة "ييل"، لوحة ٤–٦؛ فتوة الرضا، مخطوط برلين، لوحة ٣٠–٣٣.

المبحث الثالث

الفتوَّة والتشيُّع

تعلَّق مفهوم الفتوة، منذ أطواره الأولى الخُلُقية والصُّوفية، بشخص عليِّ بن أبي طالب، وكان من لطائف المناسبة أن يكون عليٌّ هو "الفَتَى" في القول الشَّهِير، وقد شاع مرفوعًا إلى النبيﷺ : "لا فتى إلا عليٌّ، ولا سيف إلا ذو الفِقَار"، وهو تعلُّق يسَّر للفتيان إسناد مسلكهم هذا في آدابه ورسومه إلى النبي ﷺ نفسه من طريق آل البيت، وقرَّبهم كذلك إلى دوائر التصوُّف والتشيُّع.

وقد اتفقت في الثلث الأخير من القرن الخامس، قبل خلافة الناصر، واقعة لم تنل ما تستحقه من العناية في تاريخ الفتوة، فقد ظهر في بغداد رجلٌ خبَّاز يقال له: "ابن الرسولي"، فوضع تصنيفًا في الفتوة وقانونها وآدابها، وسمى نفسه: "كاتب الفتيان"، واتخذ أعوانًا له على رأسهم بزَّاز يقال له: "علي عبد القادر الهاشمي"، وجعل لكل من يدخل الفتوة على يديه منشورًا وولَّاه صُفْعًا؛ فبذلك يكون قد قلب الفتوة تنظيمًا له وكلاء في النواحي، ويقول ابن الجوزي: "صارت المكاتباتُ من جميع البلدان صادرة منه وإليه، والتعويل في هذا الفن وقفًا عليه"، وقد اتُّهِم هذا التنظيم بأنه يدعو للفاطميِّين سرًّا، ويجعلون الفتوة عنوانًا لجمع الكلمة على هذا الغرض؛ فقُبِض على ابن الرسولي في ذي الحجة من سنة ٤٧٣، وعُثِر عنده على مكاتباتٍ إلى أصحابٍ له في مصر(١).

وقد حفظ سبط ابن الجوزي (ت: ٦٥٤هـ) قطعة نفيسة من كتاب ابن الرسولي في "الفتوة" افتتحها بقوله:"الحمدُ لله مُعِزِّ الفتيان بالفتوَّة، **وجاعِلِها إرثَ الإمامةِ**

(١) انظر- ابن الجوزي: المنتظم، جـ١٦ ص٢١١-٢١٢؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ١٩ ص٣٥١-٣٥٣ .

والنبوَّة، وجَعَلَها لأهلها أنسابًا"، ثم شرع في الانتقالات التاريخية للفتوة من عهد آدم، وهو نصٌّ لا يكاد يختلف عن فلسفة الغلاة في الأطوار التاريخية للإمامة، وتحولها من ناطق إلى ناطق، إلا في استبداله الفتوة بالإمامة، وقد جعلها إرثًا عنها وعن النبوة، فيكون اصطنع ثلاث مراتب: فتوة وإمامة ونبوة، على نحو ما قال الغلاة: وصية وإمامة ونبوة.

يضاف إلى ذلك أنه قد دخل في فتوة هذا الخباز "نيف ومائة من الأشراف والأعيان وزعماء البلدان"؛ من أجل ذلك بدا أن "الفتوة" هاهنا ستار على مفاهيم أخرى؛ فأفتى الفقهاء باستئصالهم؛ فصودرت أموالهم ودورهم.

ثم لما نشأت الفتوَّة نشأتها الثانية، على يد الخليفة الناصر، تعلَّقت كذلك بشخص عليٍّ ودارت على رحاه، وهو تعلُّقٌ له مظهر تاريخي في سيرة الناصر نفسه، وبطانته التي أوحت إليه بالدخول في نظام الفتوة، وله مظهر فنِّي في منزلة عليٍّ من البناء الفكري للفتوة المتأخرة:

(١) أمَّا سيرةُ الخليفة الناصر فقد حُكِيَ عنه الميلُ إلى التشيُّع على طريقة الإمامية، قال ابنُ واصل: "كان الناصر لدين الله يتشيع ويميل إلى مذهب الإمامية"، وروى أنه أَشْخَصَ إليه رجلًا يعتقد صحة إمامة يزيد بن معاوية يريد معاقبته، وأن أبا الفرج ابن الجوزي، وكان معاصرًا للناصر، سُئِل في حَضْرَته: "من أفضلُ الناسِ بعد رسُول الله ﷺ ؟"، فقال: "أفضلُهم بعده من كانت ابنتُه تحتَه!"، ولم يقدر أن يصرِّح بتفضيل أبي بكر [(١)]، حتى قيل: إنه عقد ولاية العهد لابنه الأصغر "عليٍّ" وأعرض عن أخيه؛ لأنه كان على خلاف مذهبه، يرى رأي الحنابلة ويبغض الشيعة.

---

(١) مفرج الكروب، الجزء الرابع، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص١٦٦–١٦٧. وجوابُ ابن الجوزي يصدُق على أبي بكر وعلي معًا، فاستغنى بالتعريض عن التصريح من هيبة الناصر.

وفي سنة ٥٨٠ خرج الناصر وأمُّه لزيارة مشهد موسى الكاظم في سامرَّاء، وأمر بعمارته بجميع ما يحتاج إليه، ثم جعله أمانًا لمن لاذ به؛ فالتجأ إليه خلقٌ كثير[١].

كانت هذه النزعة الشيعية في الناصر يغذِّيها فيه أستاذُ دارِه مجد الدين ابن الصاحب، وقد عَلَت رتبة هذا الرجل حتى قال ابنُ الأثير: "كان متحكِّمًا في الدولة، ليس للخليفة معه حكم!"[٢]، وقد كان مع ذلك متشيعًا شديدًا في تشيُّعه، فسعى في نشر بعض رسوم الإمامية، قال الذهبي: "كان رافضيًّا سبَّابًا، تمكَّن وأحيا شعار الإمامية، وعَمِل كلَّ قَبِيحٍ"[٣]، ثم أخذ عليه الناصر أمورًا فاستدعاه إلى دار الخلافة وأمر بقتله، وذلك في ربيع الأول من سنة ٥٨٣ هـ.

وينسب إلى الناصر شعر كثير في آل البيت، ويذكر في بعضه "الثأر" لهم[٤]، وعرف الملوكُ عنه هذا؛ فكانوا يستحثُّونه على مقاصدهم بذكر ما يوافق هواه من التشيع، وقد كتب الأفضلُ عليٌّ الأيوبي يشكو إليه تعصُّب أخيه وعمِّه عليه[٥]:

مَـــوْلايَ إنَّ أبـــا بَكْـــرٍ وصـــاحِبَه عُثْمَـانَ قـد غَـصَبَا بالـسَّيْفِ حَـقَّ عَلِـي
فانْظُرْ إلى حَظِّ هذا الاسْمِ كَيْفَ لَقِي مِـنَ الأَوَاخِـرِ مـا لاقَـي مِـنَ الأُوَلِ!

---

(١) انظر– الملك المنصور: مضمار الحقائق، ص١٧٧–١٧٨

(٢) الكامل في التاريخ، جـ١٠ ص٤٥، وانظر: رحلة ابن جبير، ص١٨٦

(٣) العبر، جـ٤ ص٢٥١، ونقله ابن العماد في: شذرات الذهب، جـ٦ ص٤٥٨، و انظر– تاريخ الإسلام، جـ٤٥ ص٨٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، جـ٦ ص١٩٢

(٤) انظر– ابن واصل: مفرِّج الكروب، جـ٤ ص١٦٩

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة، دار الكتب الخديوية، ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، جـ٦ ص٣٠٩

فكَتَب إليه النَّاصِرُ:

واقَـي كِتَابُـك يـا ابْـنَ يُوسُـفَ ناطِقًـا بـــالحَقِّ، يُخْبِـــرُ أنَّ أَصْـــلَكَ طـــاهِرُ
غَـــصَبُوا عَلِيًّـــا حَقَّـــهُ إِذْ لَـــمْ يَكُـــنْ بَعْـــدَ النَّبِـــيِّ لـــه بِيَثْـــرِبَ ناصِـــرُ
فاصْـبِرْ فـإِنَّ عَلَـى الإِلَـهِ حِـسَابَهُمْ وابْـشِرْ فناصِـرُكَ الإمـامُ النَّاصِـرُ!

وقد تجلى هذا الميل العلوي في مسلكه في الفتوة، فقد أخرج سنة ٦٠٤ مرسومًا لجماعة الفتيان، نسب الفتوة فيه إلى علي بن أبي طلب، وذكر أنه "أصل الفتوة ومنبعها، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها"(١).

نشأ نظام الفتوة، إذًا، مختلطًا بنزعة شيعية، يقوم عليها الخليفة نفسه وبعض وجوه دولته، وقد أوكل إلباس الفتوة إلى "آل مُعَيَّة" من العلويِّين يتوارثونه لا يخرج عنهم ما بقي في العراق أحدٌ منهم(٢)؛ فلا جرم اصطبغت بطابع علوي ازداد على العصور وضوحًا، حتى بلغ رتبة الغلوِّ المفرط في بعض نصوص الفتوة المتأخرة.

**

(٢) وأما الطابع العلوي للفتوة نفسها فأول ما يظهر في مسألة إسنادها، وللفتوة وجهان من السند:

– **أحدهما:** أدوارها التاريخية من عهد آدم.

---

(١) تاريخ ابن الساعي، الجزء التاسع، ص٢٢٢

(٢) انظر– ابن عنبة: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، نشرة محمد حسن آل الطالقاني، المطبعة الحيدرية في النجف، ط. الثانية، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ، ص١٧٠–١٧١، في الكلام على النقيب تاج الدين محمد بن أبي جعفر القاسم (ت: ٧٧٦هـ)، من ذرِّية إبراهيم الغمر ابن الحسن المثنى، وهو شيخ ابن عنبة، لازمه قريبًا من اثنتي عشرة سنة وأصهر إليه، وقال في شأنه: "كان يتولى إلباس لباس الفتوة، ويعتزي إليه أهله (=أهل ذلك اللباس من الفتيان)، ويحكم بينهم بما يراه فيطيعون أمره ويمتثلون مرسومه"، ثم قال بعد بضعة أسطر: "وكان إليه إلباس خرقة التصوف من غير منازع في ذلك، لا يُلْبِسها أحد غيره أو من يُعْزَى إليه"، وهو من الشواهد الكثيرة على تداخل دوائر الفتوة والتشيع والتصوف بعضها في بعض

– **والآخر**: إسنادها من مشايخها إلى النبي ﷺ .

(أ) أما الأدوار التاريخية للفتوة فقد تجاوزت غرض التأصيل الأسطوري لرسومها وشعائرها إلى معنى "الوديعة" التي تنتقل من نبي إلى وصي، وهنا نقارن بين إسناد الإمامة الباطنية بين النطقاء والأسس وإسناد الفتوَّة كما تذكره فتوة الرضا، وهي تمثل "الصياغة المعيارية" للفتوة المتأخرة:

*** الإمامة الإسماعيلية:**

	الناطق	الأساس
I	**آدم**	شيث
II	**نوح**	سام
III	**إبراهيم**	إسماعيل
IV	**موسى**	هارون
V	**عيسى**	شمعون الصفا
VI	**محمد**	علي
VII	**القائم**	ـــ

*** فتوة ابن الرسولي:** آدم – شيث – نوح – سام – إبراهيم – موسى – عيسى – محمد – علي

*** فتوة الرضا:** آدم – شيث – نوح – سام – إبراهيم – إسماعيل – موسى – عيسى – محمد – علي

ويجب أن يؤخذ في الاعتبار هنا أن مساق الفتوة لا يرد في النصوص على سبيل الاستيفاء، وإنما يقع فيها ما يدل على تجاوز بعض حلقات الإسناد، كأن يقال: "ولم تزل تنتقل حتى وصلت إلى فلان"؛ وعلى هذا نعتقد أن إسنادها مطابق لمجموع النطقاء والأسس الإسماعيليِّين، وليس بين يديَّ نص في الجمع بين الفتوة

والإمامة مع سرد هذا الإسناد لها أقدم من نص ابن الرسولي، وقد قام الشاهد التاريخي على صلته بالفاطميين.

(ب) وأما سند أشياخ الفتوة بها إلى النبي ﷺ فلعله غير جدير بالنظر من الناحية الحديثية؛ فعامة من فيه مجاهيل، وأسماء لا تعرفها الدوائر العلمية الإسلامية، وتختلف المصادر في رَسْمها وتحقيق لفظها مع اختلافها في أصل هذا السند وتعداد رجاله قلةً وكثرةً[(١)]، حتى قال ابن تيمية: "في إسنادها من الرجال المجهُولين، الذين لا يُعْرَف لهم ذِكْر، ما يبيِّن كذبها"[(٢)]، ولكن يلفت النظر ذلك الطابع الفارسي لرجاله، ثم النص على أسماء لم يجر عرف المنازع الروحية في الإسلام أن تنتحل النسبة إليها.

يسير السند من عليٍّ إلى سلمان الفارسيِّ، على نحو ما تسير الأسرار الباطنية عند طوائف من الغلاة، ثم نصادف: أبا مسلم الخراساني، وبهرام الديلمي، وروزبه الفارسي، والفضل بن زياد الفارسي، والملك كليجار أو كانجار، وأبا الحسن بن الشاريان؛ فإسناد الفتوة عند أهلها قد أوشك أن يكون إسنادًا فارسيًّا، مع كونه يبدأ بعربيٍّ وينتهي إلى عربيٍّ.

---

(١) أقدم المصادر في سرد إسناد الفتوة إلى الخليفة الناصر ابن المعمار البغدادي في "الفتوَّة" والنقَّاش الخرتبرتي في "تحفة الوصايا"، وكلاهما معاصر للناصر، ثم نصوص الفتوة المتأخرة المنحولة على رجال من العترة لاسيما جعفر الصادق منهم، ثم أثبته أيضًا بعض المؤرخين اللاحقين من أهل القرنين الثامن والتاسع، كالقطب اليونيني (٧٢٦ هـ) في: ذيل مرآة الزمان، جـ٢ ص١٩٠–١٩١، والدواداري (بعد سنة ٧٣٦ هـ) في: كنز الدرر، جـ٨ ص٨٠–٨١، وابن أبي الفضائل المؤرخ القبطي (بعد سنة ٧٥٩ هـ) في: النهج السديد، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، دمشق، دار سعد الدين، ط. الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، جـ١ ص٩٧، وتقي الدين المقريزي (٨٤٥ هـ) في: السلوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، جـ١ ص٥٥٨، وإليه يشير الشمس السخاوي (بعد سنة ٨٨٩ هـ) في: تحفة الأحباب (ص١٧) عند الكلام على مقابر محلة "الحسينية" في القاهرة

(٢) منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط. الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، جـ٨ ص٤٧.

ولا يكاد يُعْرَف من جملة هؤلاء إلا أبو مسلم الخراساني (١٣٧ هـ)، ويمكن أن يقال الكثير عن ولائه العلوي عند قيام الدعوة العباسية إلى عموم الرضا من آل محمد عند رأس المئة الثانية، ولكن لا يكاد يحفظ للرجل مكانة فكرية أو عاطفية إلا أصحاب الشعور الفارسي، من الذين كانوا يؤملون فيه أن يردَّ المُلْكَ إليهم، كما كانت تمنِّيهم حِسَاباتٌ فلكيَّة يتداوَلُونها عن قُرْب زوال مُلْكِ العَرَب، وهؤلاء من خرجوا عند مقتله خروجًا عنيفًا على أبي جعفر المنصور في دعوات سياسية وفكرية غالية في خراسان وما حولها، أفرط بعضها حتى توهم روحًا إلهيًّا يحل في أبي مسلم. والشواهد العلمية قائمة على اتصال النزعة "الأبي مسلمية" في متوالية حركاتٍ سياسيَّة لغُلاة العَجَم حتى ظهور الدعوة الإسماعيلية في القرن الثالث[١]، وهي الدعوة التي راسلها "فِتْيان" بغداد في القرن الخامس، أو بعض المنتسبين إلى الفتوَّة فيها، كابن الرسُولي الخبَّاز وأصحابه.

* *

أما النزعة العلوية الضاربة إلى التشيع في البناء الفكري للفتوة المتأخرة فلها مظاهر: أوَّلُ ما فيها اختصاصُ عليٍّ دون سائر صحابة النبي ﷺ بلباس الفتوَّة، وهو مما التفت إليه ابن الوردي فرأى فيه أنه "نوع من دعوى غلاة الروافض، بنحو ما ادعوه من النص على خلافة علي، وأنه خُصَّ بالخلافة من رسول الله ﷺ دون غيره"[٢]، ويشبه هذا ما سيقوله ابن خلدون (٨٠٨ هـ) عن "خرقة التصوُّف"،

(١) انظر فيما يتعلق بمقتل أبي مسلم وآثاره الفكرية: فلسفة الغلاة- التطور الفكري لنزعات التنبؤ والتأله في الإسلام، القاهرة، مركز إحياء للبحوث والدراسات، ط. الأولى، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م، ص١٤٩-١٧٨.

(٢) انظر- الشهاب الثاقب، لوحة: ١٢/ ظ.

وأن تخصيص عليٍّ بها إنما هو نزعة شيعية سَرَتْ إلى جماعة الصوفيَّة، أو هي طباعٌ "يَسْرِقُ" بعضُها من بعض(١).

فإن أتت النصوص المتأخرة على أحد من سائر الصحابة غير عليٍّ وسلمان فالأكثر أن يكون أبا ذر الغفاري والمقداد بن الأسود ونحوهما ممن لهم حضور مخصوصٌ في الثقافة الشيعية الغالية.

أما واقعة الغدير التي جعلتها الإمامية تصريحًا بالإمامة، وجعلها الغلاة تصريحًا بالمعنويَّة (= الألوهية)، فقد جعلها الفتيان نصبًا لعليٍّ على رأس الفتوَّة، وصوَّروها في نصوصٍ لا تخلُو من غلوٍّ مُفْرِط، كما في مخطوط الفتوَّة رقم ٢٥٤ من مجموعة المخطوطات العربية بجامعة "يِيل Yale" الأمريكية (لوحة: ٦)، وفيه:

> "[ثمَّ دَعَا (النبيُّ)] بعليٍّ فطلع بقُرْبِه فوقَ المِنْبَر، ودخل من أثوابه فطلع رأسُ عليٍّ من طوق النبي ﷺ ، فعند ذلك قال النبي ﷺ: "يا عليُّ، لَحْمُك لَحْمِي، ودَمُك دَمِي، ورُوحُك رُوحِي!"، فكتم الحاسدون؛ فكشف ﷺ عن جسده، فرأوا جَسَدًا واحدًا والرؤوسُ اثنان!، وهما يتكلَّمان بكلامٍ يُفْهَم وكلامٍ لا يُفْهَم على غيرهم؛ فآمن عند ذلك الحاسدون".

(١) انظر– مقدمة ابن خلدون، تحقيق إبراهيم شبُّوح، تونس، القيروان للنشر، ط. الأولى، ٢٠٠٧م، جـ٢ ص٢٧٣–٢٧٤ .

وفي نصٍّ مُدْرَج في "فتوَّة السَّادة الحلَّاقين" من هذا المخطوط أن النبي ﷺ بثَّ إلى عليٍّ تسعين ألف كلمةٍ من الأسرار تلقَّاها يوم المعراج، وقال الله له: "يا محمد، لا يمكن هذه الأسرار أن تُقِرَّ بها لأحدٍ إلَّا لعَلِيٍّ!"، فتحدَّث بها عليٌّ في خلوة له عند بئرٍ؛ ففاضَ ماؤها وجرى، ونبت من الماء ثلاثُ قَصَباتٍ، جاء راعٍ فقَطَع واحدةً وصنع منها نايًا، وقطع النبيُّ وعليٌّ الأُخْرَيَيْنِ، فكانَ رسُول الله يَصْفِر بها فطَلَبها سلمانُ الفارسيُّ فأعطاه إياها، وربَّما لا يَخْفَى ما في هذا السِّياق الشِّعْرِي من مزاجٍ أدبيٍّ فارسيٍّ، لا تألفه القريحةُ العربية في اعتدالها أو غلوِّها.

فإن كان هذا النص تشهد "خَوَارِجُه" باحتمال أن يكون معبِّرًا عن فتوَّة شيعية بالأصالة، فإنَّ النصوص التي لا شكَّ في سنِّيَّتها قد جعلت عليًّا "حَوَى جميع الصنائع وعلومها"، قد أجازه النبي ﷺ بها فيما يقال له: "عهد الصِّناعة" أو "عهد التخصيص"؛ فصار بذلك "آدم العهد والشدِّ"، أي: منه ابتداؤهما، ولعهده هذا رُوحانيَّة مَلَكٍ مقامه عند أم الكتاب من السماء، فيعرف الوقت وكلما تعاهد رجلان حضر يشهد اجتماعهما[1]. وكان عليٌّ أول شيخ لعلم "الحقيقة" كما يفهمها أرباب الصنائع، ويقولون: قد أُعْطِي النبي ﷺ علومًا كثيرة، منها ما أمر بتبليغه، ومنها ما أمر بكتمه، ومنها ما خيِّر بين تبليغه وكتمه، وهذا القسم الأخير هو علم الحقيقة، وقد بثَّه النبي إلى عليٍّ واختصَّه بذلك.

وقد بلغ الغلوُّ إلى اعتقاد وجود صُوَرٍ سماوية لعليٍّ رآها النبي ﷺ ليلة الإسراء، فقال:

"ليلةَ أُسْرِيَ بي ما مَرَرْتُ في سماءٍ إلَّا وقد رأيتُ فيها
صُورةَ عليِّ بن أبي طالبٍ، قلتُ: يا ربِّ، إنِّي تركتُ عليًّا

(١) انظر: شرح زجل الشيخ محمد العجان، مخطوط باريس رقم: ١٣٦٤- عربي، ورقة ١٤/و، ٣٣/و، ٤٩/و، والنص مصري.

في الأرض هل أُسْرِيَ [به] معي؟، قال الله: يا محمَّد، إنِّي أحببتُ عَلِيًّا فجعلتُ في كلِّ سماءٍ مَلَكًا على صُورةِ عليِّ بن أبي طالبٍ!"(١).

* *

(١) المصدر السابق، اللوحة ٥٠/ظ، وهذه أيضًا رواية شيعية: اثنا عشرية كما عند الكراجكي في: كنز الفوائد، تحقيق عبد الله نعمة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جـ٢ ص١٤٢–١٤٣، وعنه المجلسي في: بحار الأنوار، إحياء التراث العربي، ط. الثالثة، جـ١٨ ص٣٠٠، وإسماعيلية كما عند الداعي إدريس عماد الدين في: زهر المعاني، نشرة مصطفى غالب، ط. الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١٤٧

هذا، وفي ختام هذه الخلاصة عن الفتوَّة والتشيُّع لابد من الإشارة إلى أن هذا "التداخل" بينهما لم يمنع الفتوَّة السُّنِّية من الإنكار على "السبَّابين من الرافضة" إلى حدِّ نشوب القتال بين الفريقين، وقد أثبت ابن جبير الأندلسي عند دخوله دمشق سنة ٥٨٠ هـ أن فيها طائفة تعرف بـ"النبوية"، يدينون بالفتوَّة وبأمور الرجولة كلِّها، قال: "وهم يقتلون هؤلاء الروافض أين ما وجدُوهم"، انظر: رحلة ابن جبير، ص٢٢٣

المبحث الرابع
الفِتْيان والطُّرُق الصُّوفية

حدثت الفتوة الناصرية في القرن السادس للهجرة، ولعلَّه أشدُّ العُصُور حسمًا في تاريخ التصوُّف: فيه استقرَّ اصطلاحه الفني، ونضجت نظرياته العِرْفانية، وظهرت طُرُقه على صورتها الشعبية الجامعة ومعها ما اختصَّت به من شعائر ورسُوم، وشهد كذلك ظهور جماعاتٍ شعبيَّة صوفية معًا تنتسب إلى رجالٍ بأعينهم، اجتذبت العامة إليها حينئذ، وبقيت حينًا من الزمان بعد شيوخها الأوَّلين ثم اندثرت، كالحَرِيريَّة والباجُرْبَقية[1].

عندئذ ظهرت الفتوة على صورتها التنظيمية المتأخرة، وفي هذا السياق التاريخي تشكَّلت معالم الفتوة الأخلاقية بصفتها مسلكًا محمودًا في الشرع، ومسندًا إلى صاحب الشرع، وضاربًا في تاريخ النبوَّات من عهد آدم، ولم تكن بحُكْمِ طبيعتها تحتاج إلى زيادة على هذا القدر من المفاهيم الدينية لتقوم عليها، ولكنها احتاجت إلى ضبط نظامها بقواعد ظاهرية؛ فسارت سيرة الطرق الصوفية، وتأثرت خطاها، وانتسخت لنفسها أنموذجًا من أعرافها ومراسمها.

وَضَعَ الفِتْيانُ "الشدَّ" و"السراويل" بإزاء "الخِرْقة"[2]، وانتحلوا لذلك سندًا كسند أرباب الطرق ينتهي إلى عليٍّ، وتسمَّى كبيرُهم بـ"الشيخ" وطالبُ النسبة إليهم بـ"المُرِيد"، ويقولون للطالب: "قُمْ فَتًى، واقعُد فتًى" كما يقول بعضُ أشياخ الطرق:

---

(١) انظر عن أهمية هذا العصر في الحياة الروحية المتأخرة: تاريخ التصوف الوجودي المتأخر، القاهرة، دار الخزانة الأزهرية، ط. الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص١٩-٢٢، وعن الحريرية والباجربقية: ص٧١٥-٧٤٥.

(٢) يلاحظ هنا أن بعض الصوفية المتأخرين يعبِّر عن الخرقة بأنها "لباس الفتوة"، ويسوق لها إسنادًا باعتبار أنه إسناد بالفتوة، وهي فتوة صوفية لا حرفية، ولكن التعبير نفسه قد يُعِين على تقارب المسلكين، انظر: شرح الفركاوي على منازل السائرين، تحقيق الأب دي بوركي الدومنكي، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٣م، ص٦٣-٦٤.

"قُمْ مُرِيدًا، واقعُد مُرِيدًا"، حتَّى ذَكَرَتْ بعضُ نصوص الفتوة: أول "الطريق" وأوسطه ومنتهاه.

وينبغي هنا أن نكون على ذكر من أن عبد الجبار البغدادي، الذي أجاز الناصر بالفتوة، إنما كان شيخًا معتزلًا في صومعة بناها لنفسه يتعبد فيها، وكان مع ذلك يتبعه "خلقٌ كثيرٌ"؛ فكأنه عندئذ شيخ طريقة صوفية أو بمنزلة الشيخ فيها.

ثمَّ تعدَّى الفتيان هذا القدر فضبطوا رسوم الدَّسْكَرة على نهج رسوم الانتساب إلى طُرُق التصوف، وإن مقارنة رسوم "الشد" من فتوة علاء الدين الرضا بنظيرها من رسوم الطريقة الرِّفاعية المتأخِّرة لتظهر توافقًا تامًّا في الشعائر يقترب من التطابق اللفظي بين النصوص(١).

ومن هذا الباب، أيضًا، تلك العُقَد الثلاث التي تنعقد في "شدِّ" الفتوَّة عند إلباسه، وقد فسِّرت في "فتوة الرِّضا" بأنها ترمز إلى "جبريل ومحمد وعليٍّ"، وهي شعيرة لم تزل قائمةً في رسوم الطريقة البكتاشيَّة، ويسمُّون الشدَّ فيها: "تيغ بند" أو "حبل الفداء"، ويتناقل أهلها أنها ترجع إلى زمن "الباقر" (ت: ١١٤هـ/٧٣٣م) حين عمد هشام بن عبد الملك إلى قتله شنقًا؛ فانعقد الحبلُ ثلاث مرَّات، وكان الإمام قد قال في الأولى: "الله"، وفي الثانية: "محمَّد"، وفي الثالثة: "عليٌّ"، وعلى هذا النحو تصح مقارنة رموز "الفُوطة" عند الفِتْيان بمعاني "الجُبَّة" التي يلبسها الدراويش، هذا مع توافق الفريقين في أصل رواية "السبعة عشر المتحزِّمين" (كمربسته) الذين حزمهم عليٌّ بيده، وإن اختلفت أسماؤهم وبعض التفصيلات عنهم، ومع كون الحَضْرة البكتاشية إنما تلتئم من اثني عشر مقامًا يشير أكثرها

(١) البحطاوي: الدرر المرضية في كيفية سلوك الطريقة الرفاعية، تحقيق عاصم الكيالي، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٤٨–٥٢

إلى أصنافٍ حِرْفيَّة على الوجه المعهود في نصوص الفتيان، كمقام الطبَّاخ والخبَّاز والقَهْوَجي والكِيلارْجِي (= الخازن)[1].

*** التطور المتأخر لنظرية العهود الصوفية:**

ومهما يكن من شيء، فلم يزل التداخل بين دائرتي التصوف والفتوة يزداد وضوحًا وعمقًا حتى استوى المظهر الأكبر له، وهو تطور نظرية "العهود"، الصوفية في أصلها، بما يستوعبُ أنماطًا من الروابط الاجتماعيَّة ليست واضحة الصِّلة بالحياة الرُّوحية؛ فأصبح "العهدُ" اسمًا يَصْدُق على ستة أقسامٍ[2]، منها ثلاثة متعلقة بالتصوف عقيدة أو سلوكًا، وهي: "عهد الحقيقة" و"عهد الشريعة" و"عهد الطريقة"، وثلاثة هي من جنس العلاقات الاجتماعية، والتعاهد الشخصي الذي ينشئ التزاماتٍ أخلاقية بين أطرافه:

(أ) عهد الصناعة: وهو نفسُه عهد الفتوَّة الحِرْفيَّة المتأخرة، أجاز به النبيُّ عليًّا، ثم أخذه عليٌّ على بضعة عشر رجلًا من الصحابة.

(ب) عهد الوصيَّة: وهو أن يقول أحد الرجلين لصاحبه: "هذا عهد الله بيني وبينك على أن تكون وَصِيِّي مِنْ بَعْدِي على أولادي، وأن تفعل معهم كذا وكذا".

(جـ) عهد الخوَّة: أي "الأخوَّة"، وهو محاكاة للمؤاخاة الأولى بين المهاجرين والأنصار.

ولمكان الطابع الاجتماعي لعهدي الصناعة والوصيَّة على الخصوص جاز أن يؤخذا على غير المسلم، من اليهودي والنصراني والمُشْرِك.

---

(١) انظر – أحمد سري دده بابا: المذكرة التفسيرية، ط. الأولى، ١٩٤٩م، ص١٩، ص٢١–٢٢، ص٢٤–٢٦، وقد تنبَّه الأستاذ لوي ماسينيون إلى بقاء شعيرة "الشدِّ" عند الرفاعية والبكتاشية خاصة، انظر مقالة "الشد" في: دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، جـ١٣ ص١٨٠، ولابدَّ هنا من مراعاة الأثر الشيعي القوي في البكتاشية، وإن كانوا ينصون على أنهم من "أهل السنة" ويرجعون في بعض أسانيدهم إلى أبي بكر .

(٢) نعتمد هنا على شرح زجل العجَّان المسمى بـ"الروض النشيق"، وكذلك رسالة "مرشد العبد"، للشيخ عبد المعطي السِّمِلَّاوي الشافعي .

لقد أراد شيوخ الطوائف الحرفية أن يرتفعوا بعهد الصناعة عن أن يكون مجرد علاقة عرفية بين "معلم" و"مريد"، وعن أن تنظمها مجرد أحكام يصطلحون عليها فيما بينهم؛ فرتبوا للصنائع وجملة متعلقاتها الفقهية والصوفية والاجتماعية علمًا كاملًا، وسموه بأثرٍ من التصوف: "علم الطريق"، وجعلوه قائمًا على أربعة أصول: الحقيقة والطريقة والشريعة والمعرفة أو العرف، وهذا التقسيم وحده يدل على أن "طريق" الصنعة كان بسبيل أن يستعير شيئًا كثيرًا من "طريق" التصوف، وأن يخطو أصحابه قريبًا من مسالك "الطرق" الصوفية.

وفي هذا السياق يكون طريق الصنعة كله من طرق الآخرة، وله أهله المتصرِّفون فيه من "أهل الولاية الوهبية"، ويكون جمع الصناعة محاكاة لجمع "عليٍّ الكرَّار" وقد شهده جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، وما تزال روحانية ذلك الجمع الأول تسري في كل جمع، ويكون "الخضر" نقيبًا على الأولياء، والحسن البصري شيخًا للمعرفة، وإليه يرجع علم الطريق، ويكون الفقير العارف من أهل الطريق ممدودًا من "أهل الصفَّة"، ويستعير صاحب "الروض النشيق" عامة النظريات الصوفية في "الحقيقة المحمدية" و"نقطة الباء"، ويتوسَّع بعض الزجَّالين المتأخرين في الرموز الحروفية والإشارات المبهمة إلى معانٍ يتعارفونها مستورة عن غير أهلها، وهو مسلكٌ كأنه لا يليق بمقامات الصنائع وأربابها، وكأنه منتحَل في غير موضعه وبين غير أهله.

على أنه يؤخذ من بعض الروايات أيضًا أن من شيوخ الطرق من أعرض نوعَ إعراضٍ عن أهل الفتوَّة، أو أنكر عليهم بعض أحوالهم أو ألفاظهم، وقد حكى ابن الوردي عن شيخ شيخه في الفتوة أنه دخل على الشيخ أبي العبَّاس المُرْسِي (ت: ٦٨٦ هـ)، فقال له: "من أنت؟"، فقال: "الكبير فلان!"، فقال الشيخ أبو العبَّاس: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! لا أعرف كبيرًا إلا الله!"[١].

(١) انظر– الشهاب الثاقب، لوحة: ١٨/ و

نتائج البحث

يمكن إجمالُ ما انتهى إليه البحثُ من نتائج فيما يلي:

١- ترجع الفتوة المتأخرة، من حيث نشأتها وتنظيمها وإسنادها، إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وسرعان ما تخلت بعده عن طابعها البلاطي أو الأميري إلى خصائص شعبية؛ فانتشرت في دوائر العامة وأرباب الصنائع والحرف.

٢- أسهم هذا التبني الرسمي للفتوة في إقبال شيوخها على التصنيف في آدابها، والتقعيد لمراسمها، فما لبث أن نشأ لها فقه وأحكام وآداب يقضى بها بين أهلها عند النزاع؛ وهو ما أدى إلى تطور كبير لجمعيات الفتيان وتنظيماتها الداخلية.

٣- ما استقرت عليه الفتوة المتأخرة من رسوم وشعائر يظهر مشابهات كثيرة بينها وبين الطرق الصوفية من جهة وبعض مراسم الشيعة الغلاة من جهة أخرى.

٤- ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار أن النصوص الدينية والفكرية التي خلفها الفتيان أقرب إلى الثقافة العامية الشعبية، فتكثر فيها الأغلاط التاريخية، وتضطرب فيها تواريخ الأعلام وأسماؤهم، مع أسماء مجهولين لا تكاد تعرفهم الدوائر العلمية.

٥- تكشف بعض النصوص الصوفية المتأخرة عن تطور مفهوم "العهد" بما يستوعب مفهوم الفتوة وشعائرها وما تقيمه من صلات بين "الفِتْيان".

**

المصادر والمراجع

أولًا– المصادر المطبوعة:

* **ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري:**

الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط. الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

* **ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي:**

رحلة ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، نشرة أكاديمية المملكة المغربية بالرباط، ١٤١٧هـ.

* **البغدادي، الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت:**

تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

* **تشنر، فرانتس:**

"الفتوة والخليفة الناصر"، ضمن بحوث: "المنتقى من دراسات المستشرقين"، ترجمة صلاح الدين المنجد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٥م.

* **ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، الحنفي:**

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، دار الكتب المصرية

* **ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني:**

– مجموعة الفتاوى، اعتنى بها وخرَّج أحاديثها عامر الجزار وأنور الباز، القاهرة، دار الوفاء، ط. الثالثة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

– منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط. الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* **جمال الدين، محمد السعيد (مترجم):**

أخبار سلاجقة الروم، لمؤلف مجهول من القرن السابع الهجري، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط. الثانية، ٢٠٠٧م.

* **ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي:**

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

* **خاتشاتريان، ألكساندر:**

أهل الفتوة والفتيان في المجتمع الإسلامي، تقديم صالح زهر الدين، بيروت، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، ط. الأولى، ١٩٩٨م.

* **ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد:**

– العبر، وديوان المبتدأ والخبر، نشرة خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ط. الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

– مقدمة ابن خلدون، تحقيق إبراهيم شبُّوح، تونس، القيروان للنشر، ط. الأولى، ٢٠٠٧م

* **الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك:**

كنز الدرر وجامع الغرر: الجزء السابع، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م. الجزء الثامن: تحقيق أولرخ هارمان، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

* **الذهبي، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز:**

– تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط. الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

– سير أعلام النبلاء، تحقيق جماعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط. الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

– العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت، ط. ثانية مصورة، ١٩٨٤م.

* **ابن الساعي، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب الخازن:**

الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، الجزء التاسع، تحقيق مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

* **سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي:**

مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، دمشق، دار الرسالة العالمية، ط. الأولى، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

* **السخاوي، نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر، الحنفي:**

تحبة الأحباب، تحقيق محمود ربيع وحسن قاسم، القاهرة، مطبعة العلوم والآداب، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

* **ابن شاكر، محمد بن شاكر بن أحمد، الكتبي:**

فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط. الأولى، ١٩٧٤م

* **الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك:**

– أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبي زيد وآخرين، دمشق–بيروت، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

– الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

* **الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:**

تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط. الثانية، ١٩٧٦م.

* **عباس، إحسان:**

شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الثالثة، ١٩٨٨م.

* **ابن العسال، المفضل بن أبي الفضائل، المؤرخ القبطي:**

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، دمشق، دار سعد الدين، ط. الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

* **ابن علي، شافع، الكاتب العسقلاني المصري:**

الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، المكتبة العصرية، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

* **ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي:**

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، دمشق- بيروت، دار ابن كثير، ط. الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* **أبو الفدا، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي، صاحب حماة:**

تاريخ أبي الفدا: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط. الأولى.

* **ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الشهبي الدمشقي:**

طبقات الشافعية، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، بيروت، عالم الكتب، ط. الأولى، ١٤٠٧هـ.

* **القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي:**

صبح الأعشى، القاهرة، دار الكتب الخديوية، ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م.

* **ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي:**

البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

* **مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب:**

تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق أبي القاسم إمامي، طهران، ط. الثانية، ٢٠٠٠م.

* **ابن المعمار، أبو عبد الله محمد بن أبي المكارم، البغدادي الحنبلي:**

كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرين، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٥٨م.

* **المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان:**

الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، بيروت، مؤسسة آل البيت، ط. الثانية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

* **المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني:**

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، ط. الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

– المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن، مؤسسة الفرقان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

* **الملك المنصور، ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عمر المظفر ابن شاهنشاه:**

مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، عالم الكتب.

* **ابن واصل، أبو عبد الله محمد بن سالم، المازني التميمي الحموي:**

مفرِّج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الرابع، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

* **ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي:**

– معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط. الثانية، ١٩٩٥م.

* **اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد:**

– ذيل مرآة الزمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط. الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ثانيًا– المصادر المخطوطة:

* **ابن الرضا، علاء الدين (؟):**

– كتاب الفتوة، مخطوط بمكتبة برلين الحكومية، مجموعة وتسشتاين الثانية *Wetzstein II*، برقم: ١٦٤٠.

* **ابن الحنفي، محمد:**

– شرح زجل الشيخ محمد العجان، المسمى: "الروض النشيق، في علم الطريق"، مخطوط باريس رقم: ١٣٦٤– عربي.

* **الخرتبرتي، أحمد بن إلياس النقاش:**

– تحفة الوصايا، مخطوط مكتبة أيا صوفيا رقم: ٢٠٤٩.

* **ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر، الشافعي:**

– الشهاب الثاقب، والعذاب الواصب، الواقع بذوي النحل الكواذب، مخطوط مكتبة أيا صوفيا رقم: ١٩٤٣.

* كتاب الفتوة في معرفة الصنائع وحقائقها ومعرفة أبيار الصنائع، مخطوط بجامعة ييل *Yale* الأمريكية برقم: ٢٥٤- عربي

ثالثًا- المراجع الأجنبية:

Arnakis, G. G., "Futuwwa Traditions in the Ottoman Empire: Akhis, Bektashi Dervishes, and Craftsmen," Journal of Near Eastern Studies 12 No. 4 (Oct., 1953)

Gerard, Salinger, "Was the Futuwa an Oriental Form of Chivalry?", Proceedings of the American Philosophical Society, vol. 94, No. 5 (Oct. 19, 1950)

Irwin, Robert, "Futuwwa": Chivalry and Gangsterism in Medieval Cairo, in: Muqarnas, Vol. 21, Essays in Honor of J. M. Rogers (2004)

* * *